مشكلات التاريخ

نكبة البرامكة

للسيد مصطفى جواد

لعل أغرب ماوهم فيه المؤرخون فعمى عليهم سبب تدمير الرشيد للبرامكة أنهم عدوا بني برمك دعاة للعلويين ومذيعين لمذهب التشيع في البلاد ، والمشكلة التاريخية إذا استبهم جانب منها تشعبت فيها الظنون واختلفت الآراء واضطربت الاحكام . ولو علم المؤرخون ان البرامكة كانوا يتقربون الى الرشيد بالسعي على العلويين والسعي بهم وتبغيضهم له جدوا الى سبب تلك الفتكة الهاشمية سبيلا ، وعلى الجلية دليلا ، ولعلموا أنهم لما حق عليهم العذاب دمرهم الله تدميرا .

لم يكن استئثارهم بالحكم وحده سبب هلاكهم ، ولا غزارة ثرائهم مدعاة الى النقمة عليهم ، ولا الزواج الذي اختلقته الشعوبية موجبا لاستئصالهم ، ولا الحادهم منها على عقابهم ، وإنما الندامة التي ندمها الرشيد بعد أن استدرجوه إلى تشريد بني عمه العلويين واستحلال دمائهم الزكية وتعذيب الابرياء منهم العذاب الهون ؛ لم يكن الرشيد ملحداً حتى لايندم ، ولا بليداً حتى لا يتنبه ، ولا شقيا حتى لا يتوب ، ولا مقصراً حتى لا يتدارك . من شفيعهم اليه وقد ولغوا في دماء بني علي وطلبوا الزلفى بتعذيبهم ، وأعلوا مراتبهم بخفض العصبية الهاشمية واجتثاث الشجرة النبوية ؟ ولقد جرؤوا بالحادهم وسوء سيرتهم أن « جعفرهم » حز رأس حبيبه العلوي « عبد الله الشهيد بن الافطس » في يوم النوروز ، وأهداه إلى الرشيد في طبق الهدايا ، فلما رفعت المكبة من فوق الطبق ورأى الرشيد رأس ابن عمه استعظم ذلك ، فقال له جعفر : ما علمت أبلغ في سرورك من حمل رأس عدوك وعدو آبائك اليك ، وكان الرشيد قد حبسه عند جعفر وأمره بان يوسع عليه . وقال ذات يوم : اللهم اكفنيه على يدي ولي من أوليائي وأوليائك ، فلم يجد ذا الشقى الكفاية إلا بقتله صبراً لا سيف معه يذود به عن نفسه ، ولا بتو على حوله يحوطونه ويكلأونه ، ولا شفيع يرد عنه لوم الزنادقة ، وهو الذي شهد وقيعة « فخ » متقلداً سيفين ينفح عن حق كان يراه مبزوزاً ، ويكافح عن سيد كان يرى نفسه محلاً عن مكانته ، فلما أسر أخذه الرشيد وحبسه عند جعفر — على ما قدمنا — فضاق صدره بالحبس وكتب الى الرشيد رقعة يشتمه فيها شتما قبيحا ، فلم يلتفت الى ذلك لأنه عالم بالعزة العلوية والاستبسال الهاشمي ، ولم يأمر الا بالتوسيع عليه والترفيه عنه ، فكان من أمره مع جعفر ما كان . (١)

وقال السيد نعمة الله الجزائري (٢) في سبب هلاك البرامكة على يدي الرشيد « وقد ذكرنا أن السبب فيه ظاهر حكاية العباسة أخت الرشيد ، وأما السبب الحقيقي فهو دعاء أبي الحسن الرضا — ع — على آل برمك في موقف عرفة لأنهم سعوا بالكاظم - ع - وكانوا أقوى الأسباب في شهادته (٣) وهذا التعليل وأن أورده الجزائري على حسب اعتقاده وتربيته الدينية ؛ ففيه رد شديد على القائلين بأن هوى البرامكة كان مع العلويين ؛ وبلغ الطيش ببعضهم ان جعلوا كل حركة للفرس دعوة للعلويين وطلاباً بحقهم ، وانتصاراً لهم ، ونشراً لمذهبهم ، وأين الزندقة من صريح الاسلام ؟

وقال بهاء الدين أبو الحسن علي بن فخر الدين عيسى الاربلي الكردي في ترجمة الامام موسى بن جعفر الكاظم « ما صورته » وكان السبب في قبض الرشيد على أبي الحسن — ع — وقتله ما ذكره أحمد بن عبيد الله بن عمار عن علي بن محمد النوفلي عن أبيه .. عن مشايخهم قالوا : كان السبب في أخذ موسى بن جعفر — ع — أن الرشيد جعل ابنه في حجر جعفر بن محمد بن الأشعث فحسده يحيى بن خالد بن برمك على ذلك وقال : إن أفضت اليه الخلافة زالت دولتي ودولة ولدي ، فاحتال على جعفر بن محمد — وكان يقول بالأمامة — حتى داخله وأنس به ، فكان يكثر غشيانه في منزله فيقف على أمره ويرفعه الى الرشيد ويزيد عليه في ذلك بما يقدح في قلبه ، ثم قال لبعض ثقاته : أتعرفون لي رجلا من آل أبي طالب ليس بواسع الحال يعرفني ما أحتاج اليه ، فدل على علي بن اسماعيل بن جعفر بن محمد ، فحمل اليه يحيى بن خالد مالا ، وكان موسى - ع - يأنس بعلي ابن اسماعيل ويصله ويبره ، ثم أنفذ إليه يحيى بن خالد يرغبه في قصد الرشيد ويعده بالاحسان اليه ، فعمل على ذلك ، فأحس به موسى - ع - فدعا به وقال له « الى أين يا ابن اخي ؟ » قال الى بغداد . قال وما تصنع ؟ قال على دين وانا ملق ، فقال له موسى : أنا أقضي دينك وأفعل لك واصنع . فلم يلتفت الى ذلك ، وعمل على الخروج ، فاستدعاه أبو الحسن - ع - وقال له : أأنت خارج ؟ قال : نعم لابد لي من ذلك ، فقال له : انظر يا ابن أخي واتق الله ولا تو تم أطفالي : وأمر له بثلثمائة دينار وأربعة آلاف درهم . فلما قام من بين يديه ،

« ١ » عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ص ٣١٥ « ٢ » نسبة الى جزائر واسط « ٣ » زهر الربيع ص ٢٠٩

قال لمن حضره : والله ليسعين فى دمى ويوتمن أولادى . فقالوا : «جعلنا فداك ،أو أنت تعلم هذا من حاله وتعطيه وتصله ؟قال نعم، حدثنى أبى عن آبائه عن رسول الله ـ ص ـ أن الرحم اذا قطعت فوصلت فقطعت قطعها الله ، وانى أردت أن أصله بعد قطعه ، حتى اذا قطعنى قطعه الله ، قالو اخرج على بن اسماعيل حتى أتى يحيى ابن خالد فتعرف منه خبر موسى بن جعفر ـ ع ـ فرفعه الى الرشيد، وسأله الرشيد عن عمه فسعى به إليه وقال له : إن الأموال تحمل اليه من المشرق والمغرب وأنه . . . ، حتى قال « ثم خرج يحيى بن خالد على البريد حتى وافى بغداد ،ثم دعا السندى بن شاهك فأمره فى موسى بن جعفر بأمره فامتثله ، وكان الذى تولى به السندى قتله جعله سما فى طعام قدم إليه ، ويقال إنه جعله فى رطب فأكل منه موسى راضيا بالسم ولبث بعده ثلاثاً موعوكا ثم مات فى اليوم الثالث . . . واخرج ووضع على الجسر ببغداد . . . فأمر يحيى ابن خالد أن ينادى عليه عند موته : هذا موسى بن جعفر الذى تزعم الرافضة أنه لا يموت فانظروا إليه (١) »

فهذا الدليل الثانى على خطأ من نسب البرامكة إلى التشيع والأمامة ، فلقد كانوا حربا على الامامة وعيونا على التشيع ورامها الفتك والزندقة ، ومحاربة الاسلام بلأمته ، ونقل على بن عيسى الاربلى المذكور أن محمد بن الفضل قال: «لما كان فى السنة التى بطش هرون فيها بالبرامكة وقتل جعفر بن يحيى وحبس يحيى بن خالد ونزل بهم ما نزل كان أبو الحسن (على بن موسى الرضا) واقفا بعرفة يدعو ثم طأطأ رأسه فسئل عن ذلك فقال : إنى كنت ادعو الله على البرامكة فقد فعلوا بانى ما فعلوا ، فاستجاب الله لى فيهم اليوم فلم يلبث إلا يسيرا حتى بطش هرون بجعفر وحبس يحيى وتغيرت حالهم (٢) »

فهذا الخبر كالذى أورده السيد نعمة الله الجزائرى مضارة بنى برمك لبنى على ، ولكنه أقدم منه نقلا ـ كما نعرف من تاريخ المؤلفين ـ وكلاهما نظر فيه نظراً دينيا ، ومع ذلك يدلان على كره الامام الثامن من الأئمة الاثنى عشر للبرامكة ودعائه عليهم ربه ، وقال محمد تقى التبريزى « من الاغلاط المشهورة ما اشتهر من ان البرامكة كانوا من المتشيعة حتى أن أيدمر بن على الجلدكى ، ذكر فى كتاب نهاية الطلب فى شرح المكتسب بتقريب : انه كان سبب بطش هرون الرشيد بهم ما اشتم منهم انهم يريدون تحويل الدولة من آل العباس الى آل على ،وذلك كله غلط نشأ من قلة التتبع ،فان البرامكة ـ لعنهم الله ـ هم الذين سعوا فى قتل موسى عليه السلام فان يحيى بن خالد هو الذى بعث على بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن أخى موسى على السعاية بموسى عند هرون لداع دعاه الى ذلك مذكور فى كتب الأخبار ، والفضل بن يحيى هو الذى بعث بالسم اليه فقتله بأمر هرون وبيد السندى بن شاهك ، بل روى ان يحيى لم يكتف بذلك حتى أراد أن يغرى هرون بقتل الرضا ، فقال له هرون : أما يغنينا ماصنعنا بأبيه ؟ أتريد أن نقتلهم جميعا ؟ وقد رواه الصدوق (١) فى العيون ، عيون أخبار الرضا ، عن صفوان بن يحيى وذكر فى آخره أن البرامكة كانوا متعصبين على أهل بيت رسول الله ـ ص ـ مظهرين العداوة لهم ، وبالجملة الذى يظهر من الاخبار المعصومية ان الله لم يغير ما بالبرامكة من النعمة الا من جهة تعصبهم ومباشرتهم قتل موسى ، فكيف يجرى فيهم هذا الاحتمال ؟» عن صحيفة الابرار « ٢ : ٣٩٦ »

وهذه شهادة من أقوى الشهادات ،فان محمد تقى التبريزى هذا شيخى المذهب فارسى الاصل والبرامكة من جنسه ، ولكن الحق عزيز على أهله فلا يضيعونه ولا يفارقونه ، وحل هذه المشكلة التاريخية ، ان البرامكة اذ أدخلوا الرشيد سياسة البغى واستدرجوه الى قسوة الحكم وقتل السادة الأبرار الأتقياء من بنى عمه تلقفهم بالرأى الحازم الحاسم ووضع فيهم السيف وعراهم بالمصادرة والعذاب ،فمضى على آثارهم وبئست عاقبة القوم المكذبين بالدين الساعين فى قتل السادة العرب وحفظة الاسلام وأهل الهدى والتقوى ، ولو لم يكن لهم من المساعى الخبيثة النتائج الا قتلهم موسى بن جعفر لاستحل خليفة الزمان قتلهم ،فكيف وقد ضحوا بكثير من العلويين وغيرهم من بهاليل العرب؟ فالرشيد إذن قد ندم على ما كان منه من الغفلة وأسف على أرواح أولئك الأتقياء وفطن لما يريد بنو برمك به وبالاسلام وسادات العرب ، فانتقم وتدارك واستغفر ، وهل من دليل على ذلك أقوى من قوله ليحيى ـ وقد قتلناه « أما يغنينا ما صنعنا بأبيه ؟ أتريد أن نقتلهم جميعاً ؟» ومن أنه لما أرسل مسروراً الخادم لقتل

(١) كشف الغمة فى معرفة الائمة لعلى بن عيسى الاربلى الكردى (ص ٢٤٧ ـ ٩) وانظر عمدة الطالب (ص ٢٠٨) ولكنه نسب السعاية الى محمد بن اسماعيل أخى على بن اسماعيل

(٢) كشف الغمة (ص ٢٧٠) وراجع كتاب صحيفة الابرار « ج ٢ ـ ص ٣٩٦ »

(١) الصدوق لقب ابن بابويه ابى جعفر محمد بن على القمى ، وله ترجمة فى دائرة المعارف الإسلامية باسم « ابن بابويه »